«البروكسيميا» أو علم المكان

ادوارد هال

ادوارد هال Edward Hall باحث أميركي نال الدكتوراه في علم الانتروبولوجيا (الإناسة) من جامعة كولومبيا سنة 1942. عمل في مجال تحليل المكان والزمان من حيث هما ميداننا تفاعل اجتماعي وثقافي. وأسس فكره على التقاء الحضارات ومقارنة الثقافات والمجتمعات فيما بينها. كما اهتم اكثر ما اهتمّ بكيفيّة «تقطيع» المكان واستعماله بين الأفراد. والحقيقة أن المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه أبحاث هال، ومعظم جهابذة البنيوية الأميركية، ينطلق من فكرة أن كلّ عنصر من العناصر التي تُحلَّل يعمل على مستويين مختلفين: المستوى الأكبر، الذي يكون العنصر فيه وحدةً او جزءاً من سياق اكبر ضمن وحدات أو أجزاء أخرى تكوّنه، والمستوى الأصغر، من حيث هو سياق يتضمّن وحداتٍ عديدة ومنظمة. وبالنسبة لهال، تنظّم كلُّ «ثقافة» المكان بطريقة تختلف عن الثقافات الأخرى وتنطلق من قاعدة «حيوانية» مشتركة لدى جميع البشر وهي «الإقليميّة». والتواصل في النظرية الأميركية الحديثة ـ وفي منظار هال بالذات ـ يُحدّ بكونه عملية ذات قنوات عديدة تلتقي فيها المرسلات ويعاضد بعضُها بعضاً. فالجسد، والحركات، والنظرة، واللغة والمسافة الشخصيّة بين المتكلّم والمخاطب، وغيرها، عناصرُ تبني التواصل في عملية لا تكون جميعُ جوانبها واعية أو إداريّة. وفي هذا المجال يُقال إن «الإنسان لا يستطيع أن لا يتواصل»، وإن الإنسان يتكلّم حتى لو ظلّ صامتاً.

ولا بدّ هنا من ملاحظة أن ادوارد هال وغيره من علماء التواصل الحديث في أميركا يستعملون مفردة «الثقافة» (culture) في معنى يختلف عن المعنى المعهود. فالثقافة عندهم تفاعل (فعلٌ متبادل interaction) بين أشخاصٍ يقومون بسلوكٍ ما ويتواصلون فيما بينهم ليس فقط بواسطة اللغة، بل كذلك بواسطة جميع حواسهم، وجسدهم، بطريقة منظّمة وبنيوية. لذلك نرى أن «امبرتو أكّو» (U. Eco) يحدّ علم السيمياء بكونه نظرية عامة للثقافة، ويحدّ دراسة الثقافة بتحليل «ظاهرة التواصل المبني على انظمة دلالية». وتكون بذلك المظاهر الثقافية على اختلافها أنظمةً من المرسلات والإشارات. إلاّ أن اللغة تبقى النظام المرجع فيها، وعلم اللسانية يبقى المنهجية الفضلى لتحليلها.

يقدّم هال في هذه الدراسة لمحة عامة عن تكوّن الفكرة الرئيسية التي أدت إلى وضعه أسس «البروكسيميا». ونستعمل هنا التعريب لنقل كلمة (Proxémique)، نظراً لعدم وجود مقابل لها في اللغة العربية. ويمكن ان نقول إنها «علم المكان». إلاّ أن هذه العبارة لا تفي

بالغرض تماماً. فهذا العلم يُحدّ بكونه دراسة المكان، ولكن من حيث إدراك الأشخاص له ومن حيث طريقة استعمالهم له. ويتّصف ذلك الاستعمال بكونه غير واعٍ ومشترك بين افراد المجتمع الواحد. يقول هال: «إن النماذج البروكسيمية [المكانية] تبقى بعيدة عن حق الوعي. ويجب إذاً دراستها دون اللجوء إلى الكشف عن وعي الأشخاص... في البروكسيميا هناك ظواهر مثل النبرة في الصوت والشدّة والنغمة في اللغة الانكليزية. وهذه عناصر من الصعب على المتكلّم أن يغيّر فيها بشكلٍ واعٍ، نظراً لأنها تكوّن جزءاً لا يتجزّأ من اللغة». وقد نُشِر هذا البحث سنة 1968 باللغة الانكليزية، وننقله هنا عن اللغة الفرنسية من كتاب يضمّ مجموعة ابحاث لعلماء أميركيين في «التواصل الحديث»(*).

لقد حدّد الإنسان الغربيّ مفهوم المكان بطرقٍ عديدة، من «المكان الاجتماعي» عند «بوغاردوس»، و «المكان الاجتماعي الثقافي» عند «سوروكين»، إلى «طوبولوجيات» «لفين»[1]. وقد درس هالوويل[2] المسافات على الصعيد التقني، وذلك بوصف طريقة قياسها في الثقافات المختلفة. أما «جامر»[3] فإنه عالج مفاهيم المكان (بما في ذلك أسسها التاريخية) من وجهة نظر الفيزياء. إلّا أن البروكسيميا (أو علم المكان)، التي تدرس إدراك الإنسان للمكان وطريقة استعماله له، لا تمتّ بصلةٍ مباشرة إلى أيّ من هذه الأعمال. إنها، على العكس من ذلك، أقرب إلى مجموعة النشاطات السلوكية وامتداداتها، التي تعرف في «علم العادات والتقاليد» éthologie تحت اسم «الإقليميّة» Territorialité. وهي تعالج أساساً مفهوم المسافة خارج حقل الوعي[4]، وتدين بالكثير لأعمال سابير ووورف[5].

(*) Edward T. HALL, «Proxémique», in Bateson et alü, *La Nouvelle Communication,* textes recueillis et présentés par yves Winkin, Paris, Coll. points, Editions du Seuil, 1981, p. 191-215.

(1) بيتريم سوروكين Pitrim Sorokin (1889-1968) عالمٌ اجتماعيٌّ أميركي (من أصل روسي). كان من روّاد علم اجتماع السلوك (مع «واتسون»)، ثم من أصحاب نظرية «خصوصيّة الوقائع الاجتماعية/الثقافية». من أهم مؤلفاته «علم اجتماع الثورة» (1925)، و «النظريات الاجتماعية المعاصرة» (1938)، و «المجتمع والثقافة والشخصيّة: بنياتها وديناميتها» (1947). أما كورت لفين (Kurt Lewin) (1890-1947) فهو عالم نفسي واجتماعي أميركيّ (من أصل ألماني)، قال بوجود علاقة متبادلة وبنيوية وديناميّة بين الفرد والمجتمع المحيط، ودرس دينامية الجماعات من المنظارين النفسي والاجتماعي. من مؤلفاته: «نظرية دينامية للشخصيّة» (1935)؛ و «مبادىء علم النفس الطوبولوجي» (1936)؛ و «الحدود في ديناميات الجماعات» (1947)؛ و «نظرية الحقل في العلم الاجتماعي» (1951). ويشير المؤلف هنا إلى المراجع التالية:

— Sorokin, *Sociocultural Causality: Time and Space; A Study of Referential Principles of Sociology and Social Science,* Durkam (North Caroline), Duke University Press, 1943.

— Lewin, *A Dynamic theory of Personality,* New York, Me graw-Hill, 1935.

(2) Irving A. Hallowell, *Culture and Experience,* Philadelphia ,University of Pennsylvania Press, 1955, p. 184-202.

(3) Max Jammer, *Concepts of Space,* New York, Harper, 1960.

(4) يقول ادوارد هال في مكان آخر: «كلّ ثقافة تنتج بطريقة خاصة بها سلسلة من المظاهر السلوكية المنظمة التي تقع في مستويات مختلفة من الوعي. [...] والنماذج البروكسيميّة تبقى بعيداً عن حقل الوعي. ويجب دراستها دون اللجوء إلى استكشاف وعي أصحابها».

cf. Hall, *Man's Image in Medium and Anthropology,* New York, International Universities Press, 1963, p. 422-445.

(5) ادوارد سابير (E. Sapir) (1884-1939) وبنجامين لي وورف (Benjamen Lee Whorf) (1897-1941) عالمان لغويان اميركيان اشتهرا بدراساتهما لغةَ الهنود (وعلى الأخص لغة الهوبي)، وقدّما نظريات جديدة في علاقة بنية اللغة بالكلام والواقع وتصور الإنسان (المتكلّم) للعالم المحيط به.

لقد جعلتني طبيعةُ اهتماماتي ذاتها أن اختار الأشخاص في أبحاثي خصوصاً من بين أعضاء ثقافتي أنا. فتعلّمت، كما يقول باتسون[6]، أن أعكف على ما يفعله الناس أكثر مما على ما يقولونه عندما يجيبون عن سؤال مباشر؛ وأن أكون متيقّظاً بشكل خاص للمواد التي لا يمكن معالجتها بشكل واعٍ، وأن أبحث عن نماذج أكثر مما أبحث عن مضمون. مع ذلك، وإذا استثنينا بعض الحالات الخاصة، لم أكن أستطيع أن أكون متأكداً تماماً من دقّة تفسيراتي الخاصة بمظاهر السلوك التي راقبتها في ثقافات أخرى؛ فأنا لست متأكّداً عملياً في هذه التفسيرات إلّا من أجوبتي العابرة. وعندما عملت بشكل مفصّل على المستوى الدقيق للثقافة وفقط في الحالات التي كان ممكناً فيها اكتشافُ أجوبة على المستويين العاطفي والسلوكي معاً، وجدت نفسي مضطراً إلى أن أدرس عن كثب ثقافتي أنا، كما كانت تبدو لي في تباينها مع الثقافات الأخرى. وأن أتفق مع ليفي - شتراوس، من هذا المنظار، عندما يتكلّم عن الانتروبولجيا في المستقبل كعلمٍ يدرس الأشخاصُ فيه أنفسهم بأنفسهم. وكانت مقاربتي تقضي بأن أستعمل نفسي مع الآخرين كوسيلة قياس (أو «مراقبة»)، كلما وُجدنا في أوساط ثقافية متناقضة. وهذه النقطة مهمّة لأننا لا يمكن أن نعي ثقافتنا إلّا وعياً غامضاً، إذا لم نجابه أفراداً ينتمون إلى ثقافات أخرى.

لقد وعيت للمرّة الأولى اهتمامي باستعمال الإنسان للمكان عندما كنت أدرّب أشخاصاً أميركيين على العمل خارج الولايات المتحدة. اكتشفت آنذاك أن الطريقة التي ينظّم بها الزمانُ والمكان تكوّن شكلاً من التواصل يخضع له المرء كما لو كان جزءاً لا يتجزّأ من الأفراد، وبالتالي معترفٌ بصحتها عالمياً، وكتبت في مقالٍ صدر في سنة 1963: «إنّ الأميركيين الذين يعيشون في ما وراء البحار يجابهون سلسلة من الصعوبات تنشأ عن مفارقات ثقافية في تنظيم المكان. فالناس «يقتربون جداً منك» عندما يتكلمون؛ وعندما يتراجع الأميركيون ليحافظوا على مسافةٍ مريحةٍ للمحادثة، يبدو أنهم أشخاص باردون، ومتحفّظون، ومنغلقون، وأنهم لا يهتمّون بسكان البلاد التي يقطنونها». كذلك، تأفّفت ربّات البيوت الأميركيات من «التبذير في المكان» في البيوت في الشرق الأوسط. وفي انكلترا، كان الأميركيون المعتادون على علاقات طيبة مع الجيران، يستاؤون من كون جيرانهم ليسوا أكثر قرباً ولا أكثر ودّاً من غيرهم من الانكليز. وفي أميركا اللاتينية، وجد الأميركيون المعتادون على الحدائق غير المسوَّرة في ضواحي المدن أنّ الجدران العالية تخلق فيهم شعوراً «بالاستبعاد». وحتى في ألمانيا، التي يشعر فيها المواطنون الأميركيون أنهم في ديارهم، أدّت نماذج مختلفة تماماً من استعمال المكان إلى توتّر في العلاقات غير منتظر. ومما لا شك فيه أن هذه الاختلافات في السلوك المكاني الطفيفة ظاهرياً كانت تؤدي إلى عدم تفهم كبير وتجعل الصدمة الثقافية أكثر عنفاً، لدرجة أنها كانت في غالب الأحيان سبباً لبعض الأمراض. وقد أوضحت دراسة ردات الفعل القوية جداً والحيّة جداً تجاه الاشارات المكانية عند هؤلاء الأميركيين الذين يقطنون ما وراء البحار، أوضحت عدداً كبيراً من البنيات (الأنظمة) التي بقيت ضمنيّة في الولايات المتحدة الأميركية. وقد وجّهتْ هذه الملاحظاتُ فكري إلى «وورف». وكما قلت في مكان آخر:

«لم يتّضح ما تنطوي عليه أفكار وورف إلّا لحفنةٍ من الأشخاص. إنها صعبة الفهم، وتصبح مخيفة نوعاً ما عندما يفكر المرء فيها بانتباه. إنها تستأصل عقيدة «حرية الاختيار» من جذورها

---

(6) غريغوري باتسون (G. Bateson) (مولود سنة 1904) عالم اتنولوجيا اميركي اهتم بدراسة السلوك البشري. تأثّر بعلم النفس، وخاصة بنظريات فرويد في التحليل النفساني. ينوّه المؤلف هنا بكتابه:

— G. Bateson *Personal Character and Culturel Milieu,* Ann Arbor, Edward Brathers, 1948. p. 24-107.

لأنها تبرهن أن كلّ إنسان سجينُ اللغة التي يتكلّمها»[7].

إن فرضيتي تقضي بأخذ المبادىء التي وَصَفها وورف وتلاميذه في اللغة، وتطبيقها على مجمل السلوك المُقَولب بالثقافة، وعلى الأخص على مظاهر السلوك التي نعتبرها غالباً بدهيّة والتي تعمل، كما يقول سابير، «وفق نظامٍ سريّ ومعقّد ليس مكتوباً في أي مكان، وليس معروفاً من أي شخص، ولكنه مفهوم من قبل الجميع»[8]. إنّ هذا النظام السريّ والمعقّد هو الذي يُخلط بينه وبين ما يُسمّى عادة بالتجربة الظاهراتية (phénoménologique). لقد كان من المعتقد لفترة طويلة أن التجربة هي ما يقتسمه الناس فيما بينهم، وأنه من الممكن أن نتجاوز اللغة بالرجوع إلى التجربة لكي نصل إلى كائن بشريّ آخر. ويعتمد هذا الاعتقاد الضمني (والمعلن غالباً) بالعلاقة بين الإنسان والتجربة على فرضيّةٍ أنّه عندما يخضع كائنان بشريّان للتجربة ذاتها يتلقى جهازهما العصبيّ فرضيّاً المعطيات نفسها، ويُجيب دماغُهما بالطريقة نفسها. إلّا أن الأبحاث البروكسيميّة تُلقي شكوكاً قوية على صحة هذه الفرضيّة، وعلى الأخصّ عندما تكون الثقافات مختلفة. فالشعوب التي تنتمي إلى ثقافات مختلفة تعيش في عوامل حواسيّة مختلفة. فهم لا ينظمون المكان بشكل مختلف فقط، بل إنهم يختبرونه بشكل مختلف لأن حواسّهم «مُبرمجة» بشكل مختلف. هناك غربال أو مصفاة انتقائية تقبل بعض نماذج المعطيات وترفض أخرى. وفي بعض الأحيان، الأفراد هم الذين «ينتقون» إحدى حواسهم أو بعضاً منها، أو جزءاً من مقدرتهم على الإدراك. وفي مناسبات أخرى، تكون الحيطان هي التي تقوم بعمل المصفاة لكونها تمثل حواجز. وهذه إحدى الوظائف العديدة والمهمّة لفنّ البناء.

وإذا كانت التجربة المكانية تختلف باختلاف بنية الحواس وباختلاف الانتباه (أو عدم الانتباه) لمظاهر معيّنة من المحيط [الماديّ]، فإنه ينتج عن ذلك أن اكتظاظ السكان عند مجموعة عِرْقية معيَّنة ليس بالضرورة اكتظاظاً عند مجموعةٍ أخرى وهكذا، لا يوجد عتبة عامة لاكتظاظ السكان، ولا وسائل محدّدة يقاس بها اكتظاظ السكان عند جميع الثقافات. وبذلك تكون الأسئلة التي علينا بالأحرى أن نطرحها: «هل الأشخاص المعنيّون مضغوطون. وإذا كانوا كذلك، فلأيّ مدى؟ وما هي الحواسّ المعنيّة بذلك؟». إن الأجوبة عن مثل هذه الأسئلة تتطلب معونة اختصاصيين من ميادين عديدة، مثل علم الأمراض، والكيمياء الحيوية، وعلم النفس التجريبي، وعلم الحركات التجريبي. وقد ساعدت أعمال جيبسون في الإدراك، وأعمال كيلباتريك وغيرهما في علم النفس التصالحي (transactionnel) في التقدّم بجدّية في هذا المجال[9].

وفي سنة 1953، وضعتُ مع «تراغر» نظرية للثقافة مبنية على النموذج اللساني. وقد أكدنا أنه بواسطة النموذج الذي كنا نستعمله يمكن ربط الأنظمة الثقافية الرئيسة (هناك عدّة منها) بفيزيولوجية الجسم؛ أي أنه لا يوجد قاعدة قبلسانية (قبل اللغة prélinguistique) فقط، بل كذلك هناك قاعدة قبثقافية (قبل الثقافة). وفي سنة 1959، اقترحت استعمال مفردة «تحتثقافة» (تحت الثقافة infraculture) للدلالة على الظواهر السلوكية «التي تسبق الثقافة والتي وضعها الإنسان ليصل إلى الثقافة». وقد نتج عن ذلك أنه من المجدي في تحليل النظام الثقافي الأولي مثل

(7) Edward Hall, *The Hidden Dimension,* garden City (New York), Doubleday, 1966; trad, fr.: *La Dimensioncachée*, Paris, Le Seuil, 1971.

(8) *cf.* E. Sapir, «L'Influence des modèles *inconscients* sur le comportement social», in *anthropologie,* Paris, Minuit, 1967, p. 35-48.

(9) James gibson, *The Perception of the Visual World,* Boston, Houghton Mifflin, 1950. — Franklin P. Kilpatrick, *Explorations in transactional Psychology,* New York, New York University Press, 1961.

البروكسيميا، أن نفحص قاعدته التحتقافية. إن نظرة على المظاهر المختلفة للإقليميّة (territorialité) (وهي كثيرة العدد) يجب أن تقدّم في الوقت ذاته قاعدة ومنظوراً يكونان نافعين في توضيح تكوّناتٍ كثيرة أكثر تعقيداً للمكان عند الإنسان.

ونستطيع في هذا الصدد أن نتعلّم الكثير من «علم العادات» (éthologie). فمن الصعب أن نتفحّص الإنسان من بين الحيوانات الأخرى، ولو كان بالإمكان أن نعدّ الإنسان، وعلى ضوء ما نعرف من علم العادات، كجسم طَوّر وخصّص «امتداداته» لدرجة أنها تحلّ بسرعة محلّ الطبيعة. وبكلمةٍ أخرى، يخلق الإنسان بُعْداً جديداً، البعد الثقافي، الذي يحافظ فيه على حالةٍ من التوازن الديناميكي. وهذا المساق هو الذي يكيّف به الإنسانُ ومحيطُه أحدُهما الآخر. بل إن الإنسان توصل الآن إلى خلق مداه الجغرافي الخاص به (biotope). وهو بالتالي جدير بأن يحدِّد أي نوعٍ من الأجسام سيكون. وتغدو هذه الفكرة مخيفة إذا فكّرنا بالمعلومات الضئيلة التي نعرفها عن الإنسان وحاجاته. وهذا يدعو كذلك إلى القول بأن الإنسان يقوم فعلاً بخلق نماذج مختلفة من الأشخاص في أكواخه، وملاجئه، ومدنه، وضواحيه. والأشدّ سوءاً أن المشاكل التي يصادفها الإنسان في محاولته خلق عالمٍ عام [شامل] هي أكثر تعقيداً بكثير مما كان يُعتقد في السابق. فقد اتضح في الولايات المتحدة أن كوخاً قذراً بالنسبة لمجموعةٍ من السكان قد يكون محيطاً غنيّاً حواسيّاً بالنسبة لمجموعة أخرى[10].

إنّ الأعمال الفريدة التي قام بها هايدغر في علم الحيوان والسلوك الحيواني تأخذ أهمية خاصة بالنسبة للبروكسيميا. فقد كرّس نفسه لدراسة ما يحدث عندما يتواجد الإنسان والحيوان: في الطبيعة، في حديقة الحيوان، في السيرك كما في مواقف تجريبيّة. وقد برهن هايدغر فكرة رئيسة يتمنّى علماء الانتروبولوجيا تطبيقها على الإنسان، وهي أننا إذا أردنا حقاً أن ننخرط في تفاعل (interaction) مع جسم ما، فإنه من الرئيسي أن نكتسب السيطرة الأساسية على أنظمة التواصل عنده. والموقع الذي يؤمن هايدغر به إيماناً عميقاً هو أن الخطأ الأكثر شيوعاً في تفسير السلوك الحيواني هو الأنسنة (anthropomorphiser)، أو في تفسير سلوك الحيوانات كما لو كانت كائنات بشرية. ولا تقتصر دراساته حول تطوّر التدجين على توضيح ضرورة فهم العالم الرمزي الحسيّ للنوع [البشري أو الحيواني] (كيف يُحدّد منطقته مثلاً، أو ما هي المكونات التي تعمل في بناء مداه الجغرافي)، بل تركّز كذلك على أهميّة معرفة الطريقة الخاصة لكلّ نوعٍ في تنظيم المسافة، فيما هو أبعد من الأمور الاقليمية البحتة. والمثال على ذلك أنه من الأساسي لحياة جسمٍ في الأسر أن تكون ردّات فعله للهرب ضئيلة جداً، بل ومعدومة تماماً. اضافة إلى ذلك، يعطينا هذا تحديداً عملانياً لعملية التدجين. وقد حدّد هايدغر التمييز بين الأنواع المتماسّة (à contact)، والأنواع غير المتماسّة، وكان أوّل من وصف بمفردات عملانية «المسافة الشخصيّة»، و «المسافة الاجتماعية». وقد برهن أن «المسافة الحاسمة» [أو الحَرِجة] دقيقة جداً لدرجة أنه بالإمكان قياسها بالسنتيمترات[11].

(10) اهتمّ بهذه الظاهرة الاجتماعية من العلماء الأميركيين خاصة «فريد»، و «غلايشر»، و «هربرت غانس»، و «شارلز أبرامز». انظر:

- Charles Abrams, *The City is the Frontier,* New York, Harper Row, 1965.
- Marc Fried and Peggy gleicher, «Some Sources of Residential Satisfaction in an Urban Slum», *Journal of the American Institute of Planners,* 27 (1961), p. 305-315.
- Herbert gaus, *The* Urban *Villagers,* Cambridge (Mass), MIT press and Harvard University press, 1960.

(11) نقولاس تينبرغن Nicolaas Tinbergen (ولد سنة 1907) عالم نفس هولندي. أحد روّاد علم ←

ودرس «شافر Schäfer» «المكان الحاسم» و «المواقف الحاسمة» في آن معاً. وعندما حذّرنا من حظر استخراج قياسات من أشكال غير بشرية، كان يصف ردات فعل اجتماعية وجماعية تجاه اكتظاظ السكان، وقدّم مفاهيم عن «كثافة السكان الحاسمة» و «الأزمات»، وهذه المفاهيم ليست مفيدة جداً بالنسبة للإنسان فحسب، بل تشمل على ما يبدو عملياتٍ تغطّي طيفاً واسعاً للغاية من الأنواع الحية.

لقد كشفت دراسات حديثة حول التباعد (espacement) عند الحيوانات أن إحدى الوظائف الأساسية للتباعد الصحيح هي في السماح بتحقيق ما يسمّيه تينبرغن «سلسلات الفعل» chaines d'action. ويبرهن تينبرغن أن حياة سمك «أبو شوكة» وأنواعٍ أخرى تتكوّن من مقاطع سلوكية يمكن التكهن بها وفقاً لنماذج ثابتة. وإذا قُطع مقطعٌ ما أو أوقف، كان لا بدّ من إعادة كلّ شيء منذ البداية. فالحيوانات والناس، كما يقول سبيتز[12]، يحتاجون في مراحل حرجة من حياتهم إلى أحجام خاصة من المكان لكي يستطيعوا لعب المشاهد المختلفة التي تنظّم تنفيذ معظم الفصول المهمة من الوجود.

إن اكتشافات الاختصاصيين في علم العادات وفي علم نفس الحيوان توحي بأن: (أ) كلّ جسم يعيش في عالمه الذاتي الذي يتعلّق بجهازه الإحساسي [الإدراكي]؛ وإذ ذاك، فإن الفصل العشوائي المفترض بين الجسم وعالمه يغيّر السياق ويشوّه بالتالي معناه؛ (ب) الخطّ الفاصل بين المحيط الداخلي والخارجي للجسم لا يمكن أن يحدّد بدقة. ولا يمكن فهم العلاقة بين الجسم ومداه الجغرافي إلّا باعتبارها سلسلة من الإواليات [الميكانيزمات] الإحيائيّة (mécanismes cybernétiques) المتوازنة توازناً دقيقاً، والتي يقوم فيها المفعول الارتجاعي الإيجابي أو السلبي بمراقبة الحياة مراقبة كتومة ولكن متواصلة. **وهذا يعني أن الجسم ومداه الجغرافي يكونان نظاماً واحداً متجانساً** (ضمن سلسلة من الأنظمة أكثر شمولاً). واعتبار أحدهما دون الرجوع إلى الآخر ليس له أي معنى.

هناك دراستان في علم العادات أخريان تلفتان الانتباه إلى الروابط بين الاقليمية ومراقبة السكان. فالدراسة المعروفة التي قام بها «كريستيان»[13] حول وعْل «السيكا» في جزيرة جيمس تقدّم فرضيّة تقول بأن السكان ينضبطون بإواليات فيزيولوجية حسّاسة لكثافة العدد. وفي ندوة «حول اكتظاظ السكان» و «الضغط» والانتقاء الطبيعي، قُدِّم الملخّص التالي:

> **«من الجليّ أن عدد الوفيات ينجم عن صدمة تأتي من اضطرابات استقلابية (métaboliques) يُرجَّح أن يكون سببُها ـ من خلال ما تشهد المعطيات الهستولوجية [المتعلقة بعلم الأنسجة Histolgie] ـ نشاطاً مفرطاً ودائماً في الغدد الكظرية. وهذا العدد الضخم من الوفيات لا يمكن أن يعلّل بوباء من الأوبئة، أو بالمجاعة أو بأية ظاهرة أخرى من هذا القبيل»**[14].

إنّ دراسة كريستيان تُعدُّ واحدة من عدد كبير من الدراسات المماثلة، التي تتناول هبوط عدد

← العادات éthologie. له دراسات عديدة في السلوك الغريزي عند الحيوانات. نال جائزة نوبل للطب سنة 1973. من مؤلفاته «دراسة الغريزة».

(12) رينيه سبيتز René Spitz عالم نفس وضع عدة أبحاث منها «دراسة علم نفس الطفل»، و«سيرورة الحوار».

(13) John J. Christian, «Factors in Mass Mortality of a Atherd of Lika Deer», *Ches apeake Science*, 1 (1960), p. 79-95.

(14) Christian et Alü «Phenomena Associated with population Density,» Proceedings *of the National Academy of Science*, 47 (1961), p. 428-449.

لسكان الناجم عن الضغط الذي يتأتّى من الزيادة الحواسية (اكتظاظ السكان).

إنّ تجارب «كالهون» (Calhon) وملاحظاته جديرة أيضاً بالاهتمام من حيث المعطيات السلوكية. قد وضع «جرذان نروج» متوحشة في أرض مسوَّرة. مساحتها ألف متر مربّع، ووضع فيها غذاء وفيراً. ثم تركها تتناسل بحريّة فتوقف عددها عند المئة وخمسين (150) ولم يزد البتة على المئتين (200). وقد اكتشف كالهون أنه حتى عندما يكون عدد السكان مئة وخمسين فقط، فإن المعارك بين الجرذان كانت تؤدي إلى اضطرابات شديدة في سلوك الأمّ لا يعيش بسببها إلّا عددٌ ضئيل من الصغار. ولم تكن الجرذان تتوزّع على نمط واحد في الأرض المسوّرة، بل كانت تنتظم في ما يقارب ثنتي عشرة مستعمرة تتألف كلٌ منها من اثني عشر جرذاً (يبدو أن هذا هو العدد الأقصى من الجرذان التي يستطيع أن يعيش بتوافق في المجموعة الطبيعيّة).

ومن الغريب أن الاضطرابات التي عاينها كالهون عند الجرذان في حالة الاكتظاظ السكاني تشبه الاضطرابات التي نراها حالياً عند بعض الأميركيين الذين يعيشون في ظروفٍ من التكديس المديني المكثّف جداً. والدراسات المقارنة حول البشر قليلة جداً. إلّا أنّ «شومبار دي لاو»[15] جمع معطيات حول عائلات العمال الفرنسيين وبرهن أن هناك علاقة إحصائية بين ظروف الحياة الاكتظاظية والأمراض الاجتماعية والعضويّة. وفي الولايات المتحدة الأميركية، بيّن تحقيق حول صحة سكان «مانهاتن» أن ثمانية عشر بالمئة فقط من عيّنة نموذجيّة من السكان لا يشكون من اضطراب عاطفيّ، وأن ثلاثة وعشرين بالمئة منهم يعانون من صدمات خطيرة أو باتوا عاجزين عن العمل.

منهجيّات البحث ومخطّطاته

يلخّص «أينشتاين» عدداً كبيراً من المشاكل المنهجيّة للبروكسيميا في مقدمته لكتاب «جامّر»: **مفاهيم المكان**[16]:

«إنّ رجل العلم يلتفت بنظره إلى الظواهر التي تبلغها الملاحظة، وذلك بغية تلخيصها ومفهمتها (conceptualiser). وعندما يحاول الوصول إلى صياغة مفهوميّة للكتلة الهائلة من المعطيات التجريبية، يلجأ إلى مجموعة معقّدة من المفاهيم المُشْبع بها منذ طفولته الأولى تقريباً. ويكون رجل العلم هذا واعياً في النادر أو لا يعي بتاتاً، المشكلة الأبدية التي تطرحها هذه المفاهيم. وهو يستعمل هذه المادة المفهومية، أو، لنكن أكثر دقة، هذه الأدوات المفهومية للتفكير، وكأنها شيء واضح، وثابت، شيء له قيمة الحقيقة الموضوعية ولا يمكن الشك فيه، على الأقلّ بصورة جديّة».

إن أحد أهداف دراستي للبروكسيميا كان تحليل طبقة رقيقة من الحياة الأميركية ـ تجربة المكان ـ، والعكوف على دراسة بعض المظاهر التي يعدّها الأميركيون بدهيّة. ولم ألحّ على «المضمون»، الخفيّ أو الظاهر، وإنما على التفاصيل البنيوية، على العناصر الإدراكية الضمنيّة.

إنّ معظم الأشخاص لا يستطيعون إلّا قليلاً، مهما حاولوا، أن يحدّدوا العناصر التي تدخل إدراكهم. إنهم يستطيعون أن يصفوا الإنتاج الحاصل فقط. لذلك، تنحصر مشكلة الباحث في البروكسيميا في وضع تقنيات تسمح بعزل عناصر إدراك المكان والتعرّف عليها. إنه يهدف إلى

(15) Paul Chombart de Lawe, *Famille et Habitation*, Paris, Ed. du C.N.R.S., 1959.

(16) Max Jammer, *Concepts of Space*, New York, Harper, 1960.

ا ناف ما يقابل في المعطيات الحسيّة البنية الفونولوجية أو الجدول الدوري عند علماء الكيمياء.
و ب أن تكون معطياته قابلة لأن يُتحقَّق منها، كما يجب أن تكون العناصر قابلة لأن تُنسَّق فيما
ب ا، وأن تعطي نتائج يمكن التكهّن بها. فالصعوبة عندما نستكشف ميداناً جديداً تكمن في
يصل إلى نماذج إجراءاتية. بذلك قدّمت اللسانية الوصفية التي جابهت مشاكل مماثلة منهجيّات
كن تطبيقها في البروكسيميا.

لقد اتفق اللسانيون، ومنذ عهد النحويين الجدد، على أن **اللغة نظام** له بنية وانتظام. فالأنظمة الكتابيّة مبنيّة، مثل ألعاب المكعّبات، انطلاقاً من أصوات اللغة المعنيّة. ويمكن التعرّف على هذه الأصوات وهي محدودة العدد. وأفضل وسيلة لعزلها تكمن في جمع نماذج من اللغة المحكيّة واعتبارها معطيات أساسيّة، ثمّ في تدوين تفاصيلها بأكثر ما يمكن من الدقة، وذلك باستعمال نظام تدوين مبنيّ على وسائل فيزيولوجية يمكن التعرّف عليها؛ بحيث إن أيّ دارس متمرّن يستطيع أن يقوم بالتدوين ذاته. ففي اللسانية وُضعت العناصر البنيويّة المترسّخة في الفونولوجيا. وقد كانت هذه العناصر البنيويّة غير معروفة في البروكسيميا عندما بدأتُ أبحاثي. ومع ذلك، فقد كان من الواضح أن شيئاً ما غير النظام المرئيّ يعمل في إدراك المكان. وكان لا بدّ من طرح بعض الأسئلة. ما هي هذه الأنظمة الأخرى؟ وكيف لنا أن نعرف أننا نتعرّف عليها بالوجه الصحيح؟

لقد استعملتُ خلال أبحاثي الأولى عدداً كبيراً من المنهجيات والتقنيات في سبيل التعرّف على عناصر إدراك المكان؛ لا لأنّ البروكسيميا كانت تضمّ كما يبدو نماذجَ عديدة من المتغيُّرات فحسب، بل كذلك وفقاً للمبدأ الذي يقول إنّ ما أتعلّمه بطريقة قد يساعدني على التحقق من صحة ما أتعلّمه بطريقة أخرى. وسأقدّم بإيجاز بعضاً من تقنيات البحث هذه، وهي: المراقبة [أو الرصْد]، والتجريب، والمقابلات (المنظَّمة وغير المنظّمة)، وتحليل مفردات اللغة الانكليزية، ودراسة المكان كما يُعاد خلقُه في الأدب والفن.

الرصْد:

عندما نرصد لفترة طويلة كيف يتفاعل الأشخاص مع المكان وكيف يستعملونه، نصبح قادرين على أن نميّز بدقةٍ ترسيمات (schémas) السلوك البروكسيمي. وإذا لم تكن الصورة سوى وسيلة مساعدةٍ في العلوم الأخرى التي تستعمل وسائل الملاحظة والرصد (بمعنى أنها نوع من الامتداد لذاكرة البصر)، فإنها تقدّم مساعدة لا غنى عنها البتة في تسجيل السلوك البروكسيمي. فهي تثبّت التصرّفات وتسمح للباحث أن يعيد تحليل المقاطع قدر ما يشاء. ولكن الصعوبة تكمن في تصوير الأشخاص دون تعكير أو تغيير سلوكهم. وقد تعلّمت أن أصوِّر الناس سرّاً باستعمال جهاز تصوير صغير جداً أحمله دائماً معي، ثم، انطلاقاً من ذلك، تعلمت أن أستعمل أجهزة أكبر كذلك. وقد تمّ أخذ بضع آلاف من الصور حتى الآن. وهي تُظهر أشخاصاً في ظروف طبيعية في الولايات المتحدة وفرنسا، وانكلترا، وإيطاليا، واليونان وسويسرا. وتكوّن هذه الصور مجموعة من المعطيات تسمح بالتحقق من الملاحظات البصرية.

إنّ جهاز التصوير، كما الصور، أدواتٌ معقدة أشدّ التعقيد ودقيقة غاية في الدقة. وقد استُعمل التصوير في البروكسيميا كوسيلة تسجيل وتذكّر وكأداة تربوية. وقد تبيّن كذلك أنه مفيد جداً في درس كيف ينظّم الأشخاص عالمهم الإدراكي الخاصّ بهم. وهاكم مثالاً جيداً على ذلك: لقد طلبت من أحد مساعديّ، وهو ألمانيّ، أن يأخذ صورتين لفتاة، إحداهما «خاصة» [حميمة]، والأخرى علنيّة. وقد توقعت أن تكون الصورة الحميمة مشوّهة والصورة العامة مدروسة. ويا للمفاجأة: لقد كانت الصورة الحميمة واضحة ودقيقة؛ أما الصورة العامة فقد جعلها مساعدي مهتزّة «... لأنه

من المفروض أن لا ننظر إلى الناس في جلسة عامة» (ولا أن نصوّرهم كذلك).

لقد اكتشفت وطلابي، خلال دراسات حديثة قمنا بها للسلوك البروكسيمي عند مختلف الأعراق في الولايات المتحدة، أنه لا بدّ للمصوِّر أن يكون عضواً من أعضاء المجموعة التي نقوم بتحليلها. فالواقع أن المصوِّر ليس في تفاعلٍ دائم مع من يصوّرهم فحسب، بل إنّ اختيار صوره يتمّ انطلاقاً من ثقافته. وقد قدّم لنا الأشخاص المصوِّرون توضيحات ثمينة حول عددٍ لا بأس به من نقاط الخلاف بين أعضاء المجموعات المعنيّة. كما بيّنوا أشياء مهمّة أُهملت في وثائق مصوَّرة من قبل أشخاص آخرين (لاينتمون إلى المجموعة). فعندما كنا نصوِّر على سبيل المثال في الولايات المتحدة، السودَ والبورتوريكيين والإسبان المنتمين إلى الطبقات الشعبية، كنا نحاول اكتشاف الطريقة التي تنظّم تلك المجموعات بها إدراكهم خلال اللقاءات وجهاً لوجه. (وكانت خبرتي في العلاقات بين الثقافات قد علمتني أنّ الاختلاف في السلوك البروكسيمي يقود إلى ما يسميه «غوفمان»: «الاستلاب التفاعلي»). في البدء، كان أحد مساعديَّ (وهو ألمانيّ) يصوّر أشخاصاً أميركيين سُوْداً من الطبقات الشعبيّة وهم في موقف تفاعلي. ثم عرضنا على هؤلاء الأشخاص صورهم (في قياس 20×24)، وطلبنا منهم أن يحدّثونا عما يجري فيها. فكانوا في معظم الأحيان لا يقدرون على الإجابة، غير أننا عندما طلبنا من أحد الأشخاص السود أن يستعمل بنفسه جهاز تصوير مجهّز بمحرّك سريع للتعبئة وأن يضغط على المُطْلق كلما رأى «هو» أن شيئاً ما يحدث، كانت النتيجةُ سلسلة من الصور بدت كلّها متشابهة بالنسبة لي أنا، الإنسان الأبيض. وقد بيّنت لي المناقشات مع المصور الأسود ومع الأشخاص المصوِّرين أنهم انتجوا وسجّلوا حواراً منظّماً غاية التنظيم ويتضمّن إشاراتٍ أكثر دقة من تلك التي يستعملها السكان البيض من الطبقات المتوسّطة، ومختلفة جداً عنها. ويبدو أنه في هذه المجموعة الخاصة من السود المنتمين إلى الطبقات الشعبية، هناك جزءٌ كبير من الإعلام يتمّ نقله بواسطة حركاتٍ صغيرة جداً من اليدين والأصابع. ولم نكن ندرك عملياً هذه الحركات، لا تلاميذي ولا أنا.

يوجد مصدرٌ آخر من المعطيات غير الرصد المباشر والصور، ويكمن في الملاحظات التي يقولها الناس تلقائياً عندما تُنْتهك اللياقات المكانية. وتساهم غالباً هذه الملاحظات في التعرّف على العناصر البنيوية للنظام البروكسيمي. والأمثلة التي نصادفها غالباً ملاحظات مثل:

- **لو يتوقف فقط عن نفخ نَفَسه في وجهي، هذا أمرٌ لا أستطيع أن أتحمله!**
- **هل لاحظت كيف أنها لا تتوقّف عن لمسك. كما لو أنها لا تستطيع أن تُبقي يديها في جيبها.**
- **كان قريباً مني لدرجة أن وجهه كان غير طبيعي**[17].

لمسُ الناس، وتوجيه النَفَس باتجاههم أو محاولة تجنبه، والنظر إليهم في وجههم أو تجنب نظراتهم، والوقوف قريباً جداً منهم بحيث إنَّ ضبط النظر يصبح مستحيلاً، كلّ ذلك أمثلة على السلوك البروكسيمي الذي يمكن أن يكون لائقاً تماماً في بعض الثقافات وممنوعاً منعاً باتاً في ثقافاتٍ أخرى.

---

(17) هذه عبارات لا تكتسب معناها الشامل إلا في سياق اللغة التي وردت بها. وهي بالانكليزية:

- I wis he would stop breathing down my neck. I can't stand that!
- Have you noticed how she is always touching you. she cant't seem to keep her hands to herself.
- The was so close his face was all distorted.

مواقف تجريبيّة مجرّدة:

من الممكن أن نتعلّم الشيء الكثير حول الطريقة التي ينظّم بها أعضاء ثقافة معيّنة المكانَ في مستويات مختلفة من التجريد، وذلك بخلق مواقف مُبسّطة يعالجون فيها بعض الأشياء. لقد أعطيتُ لتلاميذي قُطَعاً نقديّة وأقلاماً وطلبت منهم أن يرتّبوها بحيث تكون «قريبة بعضها من البعض الآخر» و «بعيدة بعضها عن البعض الآخر»، و «جنباً إلى جنب»، و «الواحدة تلْو الأخرى»، ثم أن يقولوا لي عندما يكون شيئان «معاً» أو لا يكونان. ولم يكن التلاميذ العرب يستطيعون أن يتوصّلوا إلى ذلك أو كانوا يرفضون إبداء رأيهم حول مسألة ما إذا كان الشيئان معاً أم لا، عندما يكون المحيطُ غير دقيق. وبكلمة أخرى، كان العرب يرون الأشياء «في سياقٍ ما»؛ ولم يكن الأميركيون يعتبرونها إلّا «إحداها بالنسبة إلى الأخرى».

المحادثات المنظَّمة:

لقد أجريت، أنا وزوجتي، مقابلات عميقة مع أشخاص أميركيين وأجانب وفقاً لترسيمة دقيقة جداً. وكانت أقصر المقابلات تدوم ستّ ساعات؛ وأطولها ستة أشهر وما زالت تقدّم معلومات رغم أن هذه المرحلة من العمل قد انتهت. وقد تبيّن خلال هذه الدراسات أنه حتى لو كانت الإجابات عن الأسئلة تتغيّر بتغيّر الأشخاص، فإن ترسيمة المحادثة نفسها كانت تعلمنا كيف ينظّم الأشخاص المكان ويختبرونه. وكنا نستطيع أن نستخلص استنتاجات من طريقة إجابتهم عن الأسئلة ومن الصعوبات في فهم بعضٍ منها.

كان دليل المحادثة يبدأ بسؤال عام يتعلّق بالمنزل والعائلة، كما بالنشاطات وتسميات مختلف الأماكن في البيت. ولم يُعدّ المنزلُ نقطة الانطلاق فقط لأن جميع الناس يملكون منزلًا، بل كذلك لأننا كنا نعلم من تجربتنا أن الأشخاص مستعدّون إجمالاً أن يتكلّموا عن أشياء ملموسة في المنزل، حتى عندما يجدون أنه من الصعب أو من غير اللائق التكلم في مواضيع أخرى. وعندما يتمّ وضعُ رسم المنزل في مخطّط ورسومات بيانية، نطرق الميدان ذاته بطريقة أخرى، وذلك بتفحُّص مواضيع من مثل خصوصيّة العائلة، وحدود المنزل، وقواعد الجيرة، وموقع المسكن في الإطار الاجتماعي والجغرافي. وكان ترتيب الأثاث في المنزل والمكتب يعطي معلومات إضافيّة حول العلاقات الاجتماعية، مثل بعض السمات الدلالية، كالكلمات والمفاهيم التي يصعب ترجمتها. وقد عُولج بذلك نحو تسعين موضوعاً.

إنّ إحدى السمات المهمّة لدليلنا تكمن في ارتباطه بالثقافة الاميركية ارتباطاً يكفي لأن يثير عند الأجانب تساؤلات تبيّن ليس فقط بنيات نظامهم البروكسيمي، بل كذلك مظاهر من نظامنا كنا نعدّها بَدهيّة. «أين تذهب كي تكون وحيداً؟»، هذا سؤال طبيعي بالنسبة للأميركي، ولكنه كان يحيِّر العرب وأحياناً يغيظهم. وكانت الأجوبة من هذا النوع: «من يريد أن يكون وحيداً؟»، «أين تذهب كي تكون مجنوناً؟»، «جهنم، إنها الجنة بلا ناس». إن الدخول في ملكية أحدٍ ما دون إذنٍ منه يُعدّ في الولايات المتحدة بعُرف الجميع خرقاً للقواعد الاجتماعية. ومع ذلك، فإننا لم ننجح خلال محادثاتنا أن نكتشف عند السكان المدنيين من العرب مفهوماً مماثلاً، ولو على وجه التقريب.

لقد تبيّن أن بنية مقابلاتنا ذاتها وسيلة بحث ثمينة. وهذا يقوم على شيء من الدقة والأهمية في آنٍ معاً. فكنا نحترم ارتيازاً نموذجياً ونتابع البحث على مستويين: المستوى (أ) وهو المناقشة لذاتها، أي الأجوبة عن الأسئلة؛ والمستوى (ب) (وكان الأهمّ والأساسيّ)، وهو التباين في البنية بين نظامين ثقافيين، يفيد أحدهما في اكتشاف الآخر. وقد اتضح أن أكثر المقابلات إثارة للاهتمام هي تلك التي كان الأشخاص الأجانب يعارضون فيها تصنيفاتنا المكانية.

إنّ جزءاً من أسئلتنا كان يخصّ سلوك الاستماع، وكان يهدف إلى الحصول على معلومات حول طريقة النظر إلى المخاطب للحصول على ردّة فعل. وقد اتضح أن هذا الجزء هو أهم ما في الأسئلة. وما ظهر في المحادثات مع الأشخاص الأجانب لم يكن جواباً مباشراً على الأسئلة، بل سلسلة من الشكاوى حول عدم إصغاء الأميركيين بتاتاً [لما يقال لهم]، أو حول ما يوصّلونه بطريقة إصغائهم. فالعرب كانوا يجدون أننا كنا دائماً متضايقين. ما الذي كان يجعلهم يعتقدون ذلك؟كوننا نُمْسك نَفَسَنا ولا نوجهه نحو المخاطب. أما الأشخاص الأميركيون اللاتينيون [من أميركا الجنوبية]، فكانوا يشتكون من أن الأميركيين لا يصغون أبداً، أو غالباً لا ينتبهون؛ وهذه نتيجة استخلصوها من كوننا نحوّل [نغضّ الطرف] من وقت لآخر. إنّ المعلومات التي كنا نبحث عنها في هذا النموذج من البحث كانت تتعلق بنموذج الارتباط الإدراكي عند الشخصين.

تحليل المفردات:

إنني أؤكّد منذ زمن بعيد أن **الثقافة هي** أساساً عمليّة تواصليّة. وهذه العملية تقع في آن واحدٍ على مستويات متعدّدة، يكون بعضها أكثر وضوحاً من البعض الآخر. واللغة هي أحد هذه المستويات الواضحة. لقد كان «بُوَاس»[18] أوّل عالم انتروبولوجيا أكّد على العلاقة بين اللغة والثقافة. وقد تابع تحليله بأبسط وأوضح ما يكون من الوسائل، أي بتحليل مفردات عدّة لغاتٍ مختلفة. وذهب «وورف» أبعد من بُواس وألمح إلى أنّ اللغة تقوم بدورٍ سائدٍ في صنع العالم الإدراكي للثقافة. فهو يقول:

«إننا نجزّىء الطبيعة بناءً للخطوط التي تضعها لغتنا. فالفئات والنماذج التي نعزلها في العالم الظواهريّ لا توجد فيه البتة...».

ويلاحظ وورف أن الزمان والمكان عند «الهوبي» يرتبطان ارتباطاً لا فاصل فيه؛ فتغيير الأول يقود إلى تغيير الآخر:

«في عالم التفكير عند الهوبي، لا يوجد مكان متخيَّل... بكلمة أخرى، لا يستطيع الهوبي أن «يتخيّل» أماكن مثل الجنّة والنار، على عكس الهنود الأوروبيين. إضافة إلى ذلك، إنّ الأماكن «الفارغة» المماثلة للحجرة أو الغرفة أو القاعة لا «تُسمّى» بالفعل مثلما تُسمّى الأشياء، إنما هي مُتَموْضعة...»

إن أثر سابير ووورف الذي يمتدّ إلى أبعد من حدود اللسانية الوصفيّة دفعني إلى النظر في مفردات المعجم الصغير «Oxford Dictionnary» لكي استخرج منه كلّ الكلمات التي تحمل دلالات تتعلق بالمكان مثل: «فوق»، «تحت»، «أبعد من»، «معاً»، «بالقرب من»، «قرب»، «مجاور»، «مستوى»، «واقف». ما مجموعه عشرون بالمئة من المعجم، أي تمّ إحصاء حوالى خمسة آلاف مفردة.

---

(18) فرانز بواس Franz Boas (1858-1942)، عالم انتروبولوجيا واتنولوجيا أميركي (من اصل الماني). اهتم بدراسة قبائل الهنود الحمر وعلى الأخص من حيث اختلاف أعراقهم وفقاً لاختلاف الوسط الجغرافي، ومن حيث ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم المحكية. ويرجع المؤلف هنا إلى:

F. Boas, «Introduction», in *Hand book of American Indian Languages,* Bureau of American Ethology, Bulletin 40, 1911.

تفسير الفن:

لقد برهن علماء النفس التصالحيّون، وبشكل مواز لفكر وورف حول اللغة، أنّ الإدراك الحسيّ ليس سلبيّاً؛ بل يُكتسب، وهو بالفعل منظم غاية في التنظيم. إنه يكوِّن تسوية فعليّة يشارك فيها معاً العالمُ والشخص الذي يدركه. فاللوحة أو المحفورة يجب إذاً أن تكون ملائمة لرؤية العالم (Weltanschauung) كما توجد في الثقافة التي تتوجه إليها، وللبنيات الإدراكية للفنان ساعة خلقه العملَ الفنّي. إن الفنانين يعلمون جيداً أن الإدراك الحواسيّ تسوية؛ فهم يعدّون هذا بدهياً بالفعل. والفنان هو في الوقت ذاته مراقب وموصِّل. ويتعلق نجاحه جزئياً بمقدرته على تحليل المعطيات الإدراكية وتنظيمها في أشكال تحمل معنى عند الجمهور. وتعطي الطريقة التي يستعمل بها الفنان الانطباعات الحواسيّة معطيات حول الفنان كما حول جمهوره.

لقد ساهم «جييديون»[19]، و «دورنر[20]، و «غروسّر»[21]، في فهم خاصّ للطريقة التي كوّن بها الإنسان الأوروبي تنظيمه الإدراكيّ خلال العصور. إنّ غروسّر مثلاً يشرح أن الصورة الشخصيّة تمتاز عن سائر الأشكال التصويريّة بالقرب النفسيّ الذي «يتعلق مباشرة بالمسافة الماديّة، والحقيقيّة، والمقيسة، التي تفصل المثال [الشخص المرسوم] عن الرسّام؛ فحدّد هذه المسافة بين مئة وعشرين سنتيمتراً (1,20م) ومترين وأربعين سنتيمتراً (2,40م). ولاحظ أنها تولِّد هذه «الخاصيّة» المميّزة للصور الشخصيّة، «ذلك النوع الخاص من التواصل ـ إنه حديث تقريباً ـ الذي يستطيع المشاهدُ أن يقوم به مع الشخص المرسوم». ويبيّن غروسّر أيضاً مشاكل التصغير والتشويه اللذين يحصلان عندما يقترب الرسّام أو الناظرُ كثيراً من الشخص؛ وترتبط ملاحظاته ارتباطاً وثيقاً بالملاحظات التي قمنا بها عندما وصفنا كيف يدرك الأشخاصُ الآخرين عندما يوجدون «قريباً جداً».

إنّ التمييز الذي يضعه جيبسون بين «الحقل النظري» (الصورة المعروضة في شبكية العين) و «العالم المرئيّ» (الصورة الثابتة التي تُخلق في الذهن) تمييزٌ أساسيّ في فهم الفارق بين أعمال فنانين مثل «هوبما» (Hobbema) و «رمبراندت» (Rembrandt)[22]. فالعالم المرئي الذي يرسمه «هوبما» هو العالم الذي ندركه من خلال نافذة، إنه توليف (synthèse) لمئات، بل لآلاف الحقول النظرية. فقد ثبّت فرضياً على القماش سلسلات تُدرك عامة في لحظة واحدة. عندما نستخدم الفن كمُعطى ثقافي، تكمن الصعوبة العُظمى في التمييز بين تقنيّة الفنان (التي تكشف وحدها بنية إبداعه) و «موضوعه»، الذي ربما يريد أن يكون مقنعاً والذي غالباً ما يكون قابلاً للنقاش؛ ذلك أنّ الأذواق الجمالية تختلف، ورغم كل الصعوبات، فإن المعطيات غنية بما فيه الكفاية لتعلّل الجهود الكبيرة المبذولة.

تحليل الأدب:

إنّ فحص الانطباعات الحسّية للكاتب مقاربةٌ جيدة جداً لعالمه الإدراكي. فإذا كان الكاتب يلجأ

(19) Siegfried Giedion, *The Eternel Present. The Beginnings of Architecture* (vol. II), New York, Bollingen Foundation, Pantheon Books, 1962.

(20) Alexander Dorner, *The Way Beyond Art,* New York, M.Y. University Press, 1958.

(21) Maurice Grosser, *The Painter's Eye,* New York Rinehart, 1951.

(22) ميندرت هوبما Meindert Hobbema (1638-1709) رسام هولندي عُرف فنّه بتوزيع الأضواء وبعث الأشكال. ورمبراندت Rembrandt (1609-1669) رسّام هولندي. امتاز فنّه بالإيحائية والفن في التعبير.

إلى النظر في خلق صوره، يمكننا أن نحدّد انطلاقاً من هذه الصوَر النموذج البصري الذي يستعمله. هل هو نظرٌ بؤريّ، أم بُقَعيّ، أم خارجيّ؟ ما هو النموذج الذي يستعمله، في المنظور الذي وضعه جيبسون؟ وما دور حاستيْ الشمّ واللمس؟

إنّ الكتّاب يعبّرون عن تجارب يعرفها القارىء مسبقاً ويستطيع أن يعبّر عنها هو نفسه إذا كان يملك المقدرة التحليلية، والخبرة، والتقنية الضرورية. وعندما يبلغ الكاتب هدفه، يكون هناك تطابق شديد بين وصفه والمثال الحواسيّ لقرّائه، نظراً لأنه يستحضر فيهم صوراً مكانيّة.

والسؤال الذي طرحته على نفسي هو التالي: «ما هي العناصر التي يقدّمها الكاتب للقارىء والتي تسمح له ببناء صورة مكانيّة؟»، كما يبدو لي أن تحليل المقاطع الخاصة بالمستوى المكاني مثير للاهتمام. فطلبت من بعض الأشخاص أن يكشفوا عن هذه المقاطع في عيِّنة من مئة رؤية نموذجية. وكانت النصوص الاكثر استعمالاً تلك التي تتضمّن صوراً مكانية تَصَوّرها هؤلاء الأشخاص بوضوح في قراءات سابقة. وقد تبيّن في النهاية أن هذه المجموعة من المقاطع التي وُضعت عليها الملاحظات ذاتُ أهمية كبيرة.

ففي الأدب كما في الرسم، يتغيّر تمثّل المكان مع الزمان ويعكس بدقّة على ما يبدو كيفية تطوّر وعي الطبيعة في الثقافة وتطوّر النماذج البروكسيمية كذلك. ويلاحظ «ماك لوهان»[23] مثلاً أن المرجعية الأولى للمنظور البصري ذي الأبعاد الثلاثة ظهر في الأدب مع «الملك لير»، في المشهد الذي يحاول فيه «إدغار» أن يقنع «الدوق غلوستر»، وكان قد أصبح أعمى بأنهما يوجدان على حافة الشاطىء الصخري. ونجد في كتاب «ثورو»[24] وهو بعنوان «فالدن»، عدداً كبيراً من الصور المكانية. فعندما يتكلّم عن كوخه الصغير وأثره على حديثهما يكتب:

«**إن جملنا تحتاج إلى المكان لتنشر وتشكّل أعمدتها في فُسحات الحديث. فكما الأمم، يجب** أن يملك الأفراد حدوداً **طبيعية ومحسوبة بدقّة**، وأرضاً محايدة حتى، **لكي تفصل بعضهم عن البعض الآخر... وفي حال الثرثارين الأصليين والمتحدّثين المضجّين، تُقبل المجاورة وحتى الكوع بالكوع والتقاء النَفَس. ولكن ما أن يتطلّب الحديث التحفّظ والتفكير، تُشتشعر الحاجة إلى مسافة كفيلة بأن تُحيِّد كلُّ هذه الحرارة وهذه الرطوبة الحيوانيتين**».

لقد كان «مارك توين» ينبهر بالمصوّرات المكانية وبتشويهاتها. فحاول أن يخلق تناقضات مكانية مستحيلة «يرى» فيها القارىء تفاصيل عن مسافات لا تصدّق، ويتصارع فيها مع أمكنة جدّ واسعة بحيث يضيع ذهنه في محاولة فهمها. إنّ معظم المسافات عند مارك توين بصرية وسمعية. و «كافكا»، في «المحاكمة»، حسّاس للجسد ولدوره في الإدراك الحسّيّ والحركاتيّ للمكان. وعند «سانت بوف» تقوم حيويّة الصورة على استعمال الإدراكات الحركاتية، واللمسية، والشمّيّة، والسمعية.

ترجمة: د. بسام بركة - الجامعة اللبنانية

(23) مارشال ماك لوهان Marshall Mac Luhan (ولد سنة 1911) باحث كندي يرأس «مركز دراسات الحضارة والتقنيات». له العديد من المؤلفات. منها «لكي نفهم وسائل الاعلام».
Mac Luhan, *Understanding Media*, New York, Mc Gray-Hill, 1964; trad. fr. *Pour comprendre les medias*, Paris, le Seuil, 1968.

(24) هنري دافيد ثورو (Henri David Thoreau) (1817-1862) كاتب وناقد وشاعر أميركي (من أصل سكوتلندي). عُرف بثقافته الواسعة وقوّة ملاحظته. من أعماله «فالون أو الحياة في الغابات»، يصف فيه حياة الوحدة والتأمّل التي أمضاها لسنتين في الطبيعة (في فالدن بوند).